نقد تشومسكي للمدرسة البنيوية و السلوكية في موضوع اللغة

د. نابي بوعلي (*)

إنّ اللّغة هي الذاكرة الجماعية حيث تحمل المخزون الذهني للأمة الناطقة بها، وغرضنا من هذه المداخلة التي تدور حول اللّغة بين التناول العلمي والتحليل الفلسفي هو البحث عن الأصول الفلسفية والإبستيمولوجية والمنهجية التي يرتكز عليها العلماء والفلاسفة والمهتمون بقضايا اللّغة عموما، وعلاقة هذه الاتجاهات ببعضها البعض، أهي من طبيعة الاتصال و التكامل ، أم هي من قبيل الانفصال والتعارض؟ ثم ماذا يمكن أن تقدم لنا دراسة اللّغة من آليات لمعرفة الطبيعة البشرية ؟

ولقد ركّزنا في هذه المداخلة على المنطلقات الفكرية الفلسفية أكثر من تركيزنا على التدقيقات اللّغوية الجزئية والإجراءات القواعدية. فلقد حاولنا البحث عن المقومات التي تجعل اللّغة تتشكل ويعاد تشكيلها وإشكالياتها المركزية، إذ لا يمكن الإحاطة بالظاهرة اللّغوية انطلاقا من ملاحظات استقرائية لبعض التجارب العلمية، أو من مجرد تأملات فلسفية لتجارب شخصية، بل لا يكون الاقتراب من ذلك إلا عندما تتكامل النظريات بتعاقب العلماء عبر الأجيال المتلاحقة.

بطبيعة الحال إنّ مسألة اللّغة لا تتمثل للعالم كما تتمثل للفيلسوف، فدراسة اللّغة من الناحية العلمية هي دراسة قائمة على الملاحظة والفرضية والتجريب قصد التوصل إلى القوانين التي تتحكم في الظاهرة اللّغوية وضبطها ضبطا دقيقا. وعلى كلّ

(*) قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.

حال هذا هو الميراث الذي يقبله العالم دون سواه ويتجاهل الأمور التي لا تدخل في نطاق أبحاثه ولكن لا ينبغي للإنسان أن يتجاهل الجوانب والروايا الأخرى التي يمكن أن نقارب منها اللّغة ضمن نظرية فلسفية شاملة، تنظر إلى الدراسة العلمية للغة على أنها مجرد مرحلة ضرورية من مراحل تبلورها ، مع ما تقتضيه تلك العملية من تهذيب للمناهج وترميم لطرائق البحث.

إنّ الدراسات اللسانية جاءت استجابة لانشغال العلماء بدراسة اللغة دراسة علمية حيث بدأت كثورة على الدراسات اللغوية السابقة عليها، كالفيلولوجيا، والنحو المقارن، والنحو التاريخي. ولقد انصبت انتقادات اللسانيات على المناهج التي كان يعتمدها علماء اللغة، والأساليب غير العلمية والمفاهيم الغامضة. وكان من إفرازات هذه الثورة تحولات عميقة في الدراسات اللغوية ابتعدت كثيرا عن مناهج وطرائق الدراسة التقليدية.

وبالفعل فمع بداية القرن العشرين بدأت اللسانيات مع فرديناند دوسوسير بتحديد موضوعها وصياغة مفاهيمها وبناء مناهجها بما يناسب الدراسة العلمية الدقيقة لتصفية الحساب مع الدراسات اللغوية السابقة.

غير أن الأمر قد تغير مع النظرية التوليدية التحويلية لتشو مسكي، حيث انتقد بشدة مناهج اللسانيات البنيوية والسلوكية واعتبرها مناهج لا تختلف عن المناهج التقليدية، وأن مبادئ علم النفس السلوكي لا يمكن قبولها في المجال اللغوي ، وأنّ التجارب التي تجرى على الحيوان تفقد مصداقيتها إذا حاولنا تطبيقها على الإنسان، كما أنّ المصطلحات التي يستعملها السلوكيون مثل المثير ، الاستجابة ، التعزيز ، وهي مصطلحات غامضة ومبهمة. وباختصار فالمنهج السلوكي الذي لا يرى في اللغة سوى عادات كلامية لا يستطيع تفسير المظهر الإبداعي للغة ولذلك فإنّ هدف اللسانيات حسب تشو مسكي هو بناء نظرية علمية خاصة بمبنى الكلام الإنساني

تتميز بالشمولية وتنطبق على كل اللغات، مؤسسا بذلك نظرية تنتقل من مستوى الوصف إلى مستوى التفسير.

وبالفعل فقد تبين من خلال الدراسة التي قمنا بها للنظرية اللغوية عند تشومسكي، ظهور صورة مغايرة لما كان عليه تصور علم النفس السلوكي حول عمليات اكتساب اللغة ، وبالتالي فقد أصبح الأمر يستدعي تفسيرا أخر أكثر عمقا من التفسير السلوكي لأنّ اللغة تنظيم شديد التعقيد يرتبط بمبادئ مجردة كلية تميز الجنس البشري عن غيره من المخلوقات الأخرى، ولذلك أفلح الإنسان في استعمال اللغة بينما لم يفلح الحيوان في ذلك . وهذا ما يجعلنا نقول حسب تشو مسكي أنّ الطفل يمتلك الأشكال الكلية التي تمثل القاسم المشترك بين جميع اللغات الإنسانية كجزء من كفاءته اللغوية الضمنية الفطرية وهذه القواعد الكلية لا تبدأ بالاشتغال إلاّ عندما تتوافر المادة اللغوية التي توفرها البيئة والمحيط العائلي الذي ينشأ فيه الطفل ومن هنا يبدأ باكتشاف قواعد لغته الأم .

إنّ البحث في اللغة مع تشو مسكي لا يقتصر على اللسانيات كما يتوهم البعض، بل يتجاوزها إلى مجال الفلسفة ونظرية المعرفة وعلم النفس، فلقد أعاد هذا الفيلسوف إحياء مجموعة من التساؤلات حركت الأوساط اللسانية والفلسفية على حد سواء، مثل القدرة المعرفية، والكفاءة اللغوية والإنجاز اللغوي، وهي التساؤلات التي تستدعي البحث وتتطلب جهودا إضافية، حيث يبقى الجواب عنها رهنا بالدراسات التي يتوجب تطويرها في مجال اللغة وعلم النفس اللغوي على وجه الخصوص، لأنّ اللغة ظاهرة إنسانية وحقيقة كونية مشتركة نستعملها كثيرا في حياتنا ولا نعرف عنها إلا شيئا قليلا.

تشو مسكي من الفلسفة التجريبية إلى الفلسفة العقلية
[بداية وصفية ونهاية معيارية]

القدرة الإبداعية للغة: L'aspect créateur de l'utilisation du langage

لقد أدرك تشو مسكي أنّ اللسانيات البنيوية التي كانت تسعى إلى دراسة اللغة دراسة علمية صارمة على غرار العلوم الدقيقة، قد اصطدمت بصعوبات معرفية وابستيمولوجية أدخلتها في أزمة حقيقية بسبب تمسكها بالمبادئ التي قامت عليها والتي لم تعد كافية لمواكبة الإشكاليات المطروحة في الحقل اللساني، والتي كانت مطروحة بحدة ولم يكن من الممكن تجاوزها. ولذلك وصف تشومسكي اللسانيات البنيوية بالتصنيفية، ورأى أنّ هدف النظرية اللّغوية ليس فقط الوصف وإنما التفسير. ولذلك فإنّ اللسانيات ستخسر الكثير إن هي أوكلت شؤونها إلى منطق العلم الصارم وهو ما دفع تشومسكي إلى اعتبار اللسانيات جزءا من علم النّفس المعرفي.

إنّ أولى الملاحظات وأغناها هي أنّ الحياة تتميز بغنى وثراء يتجاوز القواعد العلمية التي تعتمد على القواعد المطلقة، التي لا تعير أي اهتمام لخصوصيات الحياة.

ولعل من تجليات ذلك هو إبداع الفرد للغته في كلّ لحظة. ومعنى ذلك هو أنّ الفرد ينفر من القوالب الجاهزة الثابتة، كما يتمرّد على النمطية، ويرفض الخضوع لكل أنماط وأشكال التطويق. إنّ الفرد يتشكل من خلال الفكر الذاتي الحر المتصل، المتجدد، فعناصر الحياة وظواهرها لا تخضع لروح المنطق الجامد الميت، بل بالعكس إنّ الإنسان من خلال اللّغة يسعى إلى كسر الجمود والرّوتين القاتل، عن طريق فتح فضاءات جديدة، ومعقوليات نوعية، لا تخضع لتخطيط مسبق وترتيب مبيت. كلّ ذلك يفسر لنا عملية الإبداع اللّغوي.

من الصعب جدا تحنيط النشاط اللّغوي ضمن آلية ثابتة، تلغي إرادة الإنسان في الاكتساب والتّعلم. وتحجم ثراء الفكر الإنساني.كما تدعي المدرسة السلوكية وعلى

رأسها سيكنر الذي كان يهتم بمعالجة المسائل الكلامية وبالتحليل الوظيفي للسلوك اللفظي وتحديد المتغيرات المتحكمة فيه من منظور المثير والاستجابة فقط. وكان يعتبر دور المتكلم دورا ثانويا . وفي هذا المجال يقول ميشال زكريا : « يهتم سيكنر بالمثيرات وبالاستجابات للمثيرات وبالعلاقات التي تربط استجابات معينة بمثيرات معينة . ولا يبدي بالتالي أي اهتمام بإسهام المتكلم في عملية التكلم، معتبرا أنّ هذا الإسهام غير جدير بالاهتمام. »(١)

غير أنّ الإنسان من حيث هو عقل لا يركن إلى النسق الجاهز. أضف إلى ذلك أنّ اللسانيات البنيوية لا ترى في اللّغة إلاّ قوالب وهياكل مجردة من الرّوح. كما لا تلتفت إلى ذلك الجانب الخلّاق، والقدرة الإبداعية للّغة التي يكشف عنها جوهر النشاط الإنساني المتميز بالحركة والتنوع والتجديد. حيث لا يمكن احتواءه أو وضعه ضمن القبضة الحديدية للتصور البنيوى للغة. و من هنا بدأ تجاوز المفاهيم البنيوية وعقيدتها الفلسفية، نحو التساؤل عن القدرة الإبداعية العجيبة للّغة، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح: « لقد تناست وتجاهلت المدارس البنيوية جانبا هاما من الدراسة وهي الظواهر المتعلقة بالقدرة التي منحت للإنسان على الكلام للدلالة على أي غرض كان وبالتالي على كيفية إحداثه له وللعبارات المختلفةّ اللاّمتناهية بالمتناهي من الوحدات، كما تناست من ثم أنّ النّظام الباطني للسان لا يمكن أن تعرف أسراره بعملية وصفية مجرّدة فقط، فإن هذا من قبيل التشخيص والتصنيف لا غير، فلبدّ من أن يتجاوز اللغوي الوصف والتصنيف إلى ما هو أهم من ذلك وهو بناء لمثل الأنماط الصورية التي يفرغ المتكلم بها عبارات دون شعور منه »(٢).

لقد لاحظ تشومسكي هذا الجانب الخلاق من اللّغة، وإن كان فريقا من الفلاسفة قبله قد لاحظوا نفس هذه الملاحظة. أمثال هال و هامبوليت وكذلك علماء

---

(١) ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط ١ ، سنة ١٩٩٣ ، ص٧٤.

(٢) عبد الرحمن حاج صالح ، مجلة اللسانيات ، العدد الأول ، المجلد الثاني ، سنة ١٩٧٢.

العرب قد نفذوا إلى نفس الملاحظة المتعلقة بإبداعية اللّغة وإنتاج جمل جديدة لم تقل ولم تسمع من قبل، حيث يقول الأستاذ منذر عياشي: (يجدر بنا أن نلاحظ هنا، أن تشومسكي ليس هو ألأصل في ابتداع هذا الرأي . فالعرب من قبله قالوا به، و نجد ذلك عند القاضي عبد الجبار و فخر الدين الرازي و الغزالي و الفارابي و ابن خلدون، كما نجد هذا الرأي عند رجال من أهل الغرب أيضا سبقوا تشومسكي به مثل سوسير و همبوليت).

وتتجلّى هذه القدرة الإبداعية، على صعيد الكلام الفردي، في المجال النفسي اللّغوي، وفي هذا الصدد يقول تشو مسكي: « في صميم اهتمامات البحث الحالي نجد ما يمكن تسميته على صعيد الاستعمال الجاري بالجانب الخلاق في اللّغة يجري كلّ شيء كما لو أنّ الشّخص المتكلم، يخترع نوعا ما لغته كلما عبّر، أو يعيد اكتشافها فور سماعها حوله وكأنه قد دمج مع مادته الفكرية الخاصة نظاما متماسكا من القواعد أو قانونا وراثيا(ونشدد على هذا)، يحدد بدوره النفسي الدلالي لمجموعة غير محدودة من الجمل الحقيقية المعبّرة أو المسموعة. ويجري كلّ شيء بكلام آخر، كما لو انّه يتصرف بقواعد توليدية للغته الخاصة »(١). تتركز القدرة الإبداعية للّغة في نظرنا على تجاوز الدلالات اللّغوية المغلّقة، وتنزع إلى قصدية للتعبير الواسع، المفتوح، غير المقيد، يتماشى ومتطلبات الحياة المتجددة التي لا تعرف الرتابة والرّوتين القاتل. ويظهر أيضا تأثر تشومسكي بالنزعة العقلية التي ترى أنّ المتكلم بلغة ما ليس مستقبلا سلبيا لها، وإنّما هو فاعل فيها أيضا، وهذا موقف يرفض النظرية التجريبية التي روّج لها هيوم ولوك، والتي ترى أنّه لا يوجد شيء في الذهن ما لم يمر بالتجربة. فالعقل حسب تشو مسكي ليس لوحا فارغا تخط التجربة فيه ما تشاء، بل يحمل معطيات سابقة عن كل تجربة

---

(١) منذر عياشي، النظرية التوليدية و مناهج البحث عند تشومسكي، مجلة الفكر العربي المعاصر،ص٣٤.

NOAM CHOMSKY : de quelques constantes de la théorie linguistique , diogene 1965 (N 51) P 14.

كما لاحظ ذلك ليبينتز من قبل .إنّ حصر الظاهرة اللّغوية في قناة الدراسة العلمية كقناة وحيدة يؤدّى بنا في نهاية المطاف إلى طابع ميكانيكي يغيّب ويطمس كل إبداع، ويؤدّي بالتالي إلى نهاية اللّغة في نسقية مغلقة تتجاوز حدود ألذات. بينما التجربة الإنسانية أوسع وأعمق من أن تحصر في نقاط مركزية، فاللّغة هي نظام معقد من المفاهيم والآليات العقلية التي تحرّك الإبداع. ولعلّ النقص الذي يشعر به الإنسان في اللّغة هو الذي يدفعه إلى الإبداع والتحسين، ولولا ذلك لما تقدم الفكر، ولظل نسقا مغلقا، لا يتناول إلاّ الجانب الخارجي من اللّغة. أما الجانب النفسي أو ما يوصف بالأصالة والعمق فانّه يفلت من المنهج البنيوي الكلاسيكي الذي يقوم على تحليل الكلام دون أن يكترث بكيفية حدوثه من طرف المتكلم.

إنّ المتكلم حسب هذا التوجه المنهجي الجديد عند تشومسكي هو الذي يفهم ويبدع اللغة ضمن الحياة الذهنية التي يوجهها العقل. ولهذا كانت محاولة تشومسكي رائدة في نقل دراسة اللّغة إلى الميدان العلمي، حيث توجهت الأبحاث اللسانية بعد ذلك نحو اكتشافات العلوم البيولوجية حول العقل البشري ووظائفه ، والتي مازال جزء كبير من هذه الوظائف مجهولا ومتوقفا على نتائج البحث العلمي في المستقبل .

إنّ تناول اللّغة من حيث الجانب الأداتي الذي تتجسد فيه هو الذي مكّن اللّسانيات من دراسة اللّغة من خلال وظيفتها التي تتمثل في الوظيفة التبليغية بمختلف تجليّاتها، فهذه الوظيفة بالذات هي علة وغاية وجود اللّغة في نهاية المطاف. يقول الدكتور عبد السلام المسدي: « إنّ اللّغة قد غدت وحدها الكفيلة بإعطاء المرء مقوماته الإنسانية عبر تمكينه من إجراء العملية التواصلية، ولو رمنا استغراق العمق الانطولوجي لقلنا إنّ اللّغة هي العامل الجوهري في إخراج الإنسان الفرد من عزلته الوجودية، وهي العنصر الفعّال في تلطيف حدة انقطاع تجربة الإنسان عن تجربة أخيه الإنسان، إذ كأنّما تغدوا اللّغة نقطة تقاطع الوقائع المعيشة وبالتالي مركز التقاء الفرد بالفرد. وليس شيء من هذا ممكنا بغير الإنجاز الوظيفي للّغة »[1].

---

(١) عبد السلام المسدي ، اللسانيات وأسسها المعرفية ، الدار التونسية للنشر، تونس أوت ١٩٨٦ ، ص ٣٦.

البنية السطحية والبنية العميقة Structure profonde et structure de surface

يرى اللغوي الأمريكي نوام تشومسكي أنّ لكل جملة لغوية بنيتين هما: البنية العميقة والبنية السطحية. فالبنية السطحية هي الجملة في شكلها النهائي كما تبدو في النطق والكتابة، أما بالنسبة للبنية العميقة فتمثل الأصول التركيبية لهذه الجملة داخل العقل البشري والتي تتحوّل عبر سلسلة من القوانين التحويلية إلى البنية السطحية، ولهذا السبب سميت نظرية تشومسكي بالنظرية التحويلية، ويمكن أن تعرض هذه القوانين عن طريق المشجر للإطلاع على كيفية التحويلات في العقل البشري، وانتقال الجملة من البنية العميقة إلى البنية السطحية.

وفي هذا المجال يقول الأستاذ أحمد مؤمن في كتابه اللسانيات النشأة والتطور ما يلي: « إنّ لكل جملة بنيتين : بنية عميقة وبنية سطحية ، أما البنية العميقة فهي شكل تجريدي داخلي يعكس العمليات الفكرية ، ويمثل التفسير الدلالي الذي تشتق منه البنية السطحية من خلال سلسلة من الإجراءات التحويلية . و أما البنية السطحية فتمثل الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل، أي في شكلها الفيزيائي بوصفها مجموعة من الأصوات أو الرموز. وحسب التحويليين فإنّ هاتين الجملتين « كتب أحمد الرسالة » و« كتبت الرسالة من قبل أحمد »، لا تختلفان إلاّ من الناحية التركيبية، أي على مستوى البنية السطحية، ولكن هما مرتبطتان إرتباطا وثيقا – إن لم نقل متطابقتان – على مستوى البنية العميقة »(١).

وقد طور تشومسكي هذين المفهومين، أي البنية العميقة والبنية السطحية في كتابه الموسوم بمظاهر النظرية التركيبية عام ١٩٦٥م.

---

(١) أحمد مؤمن ، اللسانيات النشأة والتطور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ص ٢١٢.

لكن ما هي الدوافع أو الأسباب التي جعلت تشومسكي يقيم هذا الفصل أو التمييز داخل الجملة ؟.

إنّ من أهم الدوافع الكامنة وراء هذا التمييز للجملة لدى تشومسكي هو عجز المناهج البنيوية والنظريات اللسانية الأخرى عن تفسير الظواهر اللغوية المعقدة ، حيث اكتفت هذه النظريات بدراسة اللغة من أجل وصفها وتصنيفها فقط، ولما كانت هذه النظريات لا تتجاوز حدود الوصف والتصنيف . فإنها بالتالي تقف عند حدود البنية السطحية، ومن ثم فإنها لم تنتبه إلى البنية العميقة للغة. ولذلك رأى تشومسكي أنّ القواعد التوليدية التحويلية هي التي تهتم بالبنية العميقة دون أن تهمل وقائع البنية السطحية، لذلك حكم تشومسكي على اللسانيات البنيوية لدوسوسير بالقصور لأنّ بحثها يقتصر في أحسن الأحوال على وصف وتصنيف وقائع البنية السطحية ، والتي لا يمكن بالتالي أن تعكس آليات المفهوم الإبداعي للغة، كما لا تستطيع أن تعكس المحتوى الدلالي كذلك .

ومن جهة أخرى لاحظ تشومسكي أنّ ظاهرة الالتباس في المعنى و الاشتراك في الدلالة يشكل إحدى الصعوبات الكبرى التي يجب بحثها، حيث أنّ البنية السطحية في حد ذاتها لا تقدم على العموم المعنى الدقيق والمحدد للجملة. ومن ثم وجب التحول إلى البنية العميقة لتحديد مصدر الغموض بالنسبة للعديد من الجمل. وعلى سبيل المثال فقد نجد جملتان تتفقان في ترتيب واحد على مستوى البنية السطحية لكنهما تختلفان في البنية العميقة، فالبنية السطحية لا تعدو العناصر المُشكِّلَة من الكلمات على مستوى النطق أو الكتابة. أما البنية العميقة فهي الصورة الذهنية المجردة. وهكذا يتيح هذا الانتقال من مستوى إلى مستوى آخر إدراك النظام الخفي من خلال المستوى التجريدي الذي يتجه صوب كشف البنية العميقة الكامنة وراء الصياغة الصوتية أو المكتوبة الظاهرية كما تظهر في شكلها النهائي.

وبناء على ماتقدم، فإذا أخذنا هذه الجملة " flying planes can be dangerous " فإننا نجدها تحتمل تأويلين، إذ قد نفهم على أنّ : قيادة الطائرات قد تكون خطيرة وقد نفهم كذلك على أنّ المركبات التي تطير قد تكون خطيرة .

ولهذا فإن البنية السطحية عادة ما يعتريها الالتباس أو الغموض. ولا تقدم الا معلومات قليلة، ولذلك فإن معرفتنا باللغة تتطلب نمطًا أكثر تجريد، والذي لا يمكن التماسه في البنية السطحية.

وفي هذا الصدد يقول تشومسكي: « إنّ الذي نقترحه هنا هو أنّ فكرة "فهم الجملة" ينبغي أن يفسر جزئيا طبقا لفكرة " المستوى اللغوي " إذن فمن أجل فهم جملة ما، من الضروري أولا أن نعيد بناء تحليلها على كل مستوى من المستويات اللغوية، ونستطيع أن نختبر صلاحية مجموعة من المستويات اللغوية التجريدية بأن نسأل هل أنّ أنظمة القواعد التي صيغت بناء على هذه تساعدنا أم لا على تقديم تحليل مقنع لفكرة " الفهم". إنّ حالات التشابه على مستوى أعلى للتمثيل وحالات عدم التشابه (الجناس التركيبي) إنما هي حالات متطرفة تدرهن على وجود مستويات أعلى إذا قبلنا بهذا الإطار "(١).

ولحل هذه الإشكالات ينبغي في نظر تشومسكي اكتشاف القواعد التي تربط الصوت بالمعنى في اللغة المعنية، والمبادئ العامة التي تحدد تنظيم ووظيفة هذه القواعد.

إنّ عصب نظرية تشومسكي تتلخص في أنّ اللغة الأم يكتسبها المتكلم من خلال قواعد أو برنامج فطري في العقل البشري، وتتشكل هذه اللغة من خلال النماذج اللغوية التي يتعلمها ويسمعها الطفل من الناس الذين يحيطون به، و وظيفة هذه النماذج هي تشكيل وصقل القواعد البيولوجية وتهيئتها لتصبح قادرة على العمل، أي على توليد

---

(١) نعوم تشومسكي ، البنى النحوية ، ترجمة الدكتور يؤل يوسف عزيز. بغداد ، العراق ، ط١، ١٩٧، ص ١١٥.

وإبداع مالا يتناهى من الجمل انطلاقا من عدد محدود من القواعد. وبتعبير آخر وتفاديا لسوء الفهم حول ماهية اللغة المكتسبة بالولادة. يقول المفكر علي حرب: « خلاصة القول في النظرية التوليدية، أنّ تشومسكي يذهب إلى أنّ الطفل لايتعلم اللغة عن طريق الخبرة والمهارة والاكتساب إلا لأنه يتمثل أساسا، ومن غيروعي، نسقا إدراكيا هو الذي يفسر عمليات الفهم والتكلم والتعلم، وبصورة يتداخل فيها النشاط الإبداعي مع ترجمة المبادئ العامة للنحو الكلي بأشكال وصيغ تختلف وتتغير باختلاف الأداءات وتغير الاستعمالات »(١)

وهكذا يظهر لنا بجلاء انتماء تشومسكي إلى التيار العقلاني الذي يعتقد أن العقل هو مصدر المعرفة ، وأنّ العقل في ذاته يحمل في طياته مبادئ لايتدخل فيها شيء مكتسب هي التي تعمل على تفسير معطيات التجربة التي تقدم حدوسا عمياء لا تصبح مفهومة إلا عندما يقوم العقل بتشكيلها وترتيبها طبقا لأطره ومبادئه الثابتة السابقة عن كل تجربة .

ويواصل المفكر علي حرب مبددا كلّ تأويل خاطئ لقراءة نظرية تشومسكي، فيما يخص معالجة اللغة من خلال مقولة النحو الكلي ذي الأساس الفطري، ومجيبا عن مقصد تشومسكي من ذلك قائلا:« إنّ اللغة في نظر تشومسكي ليست شيئا نتعلمه وإنّما هي شئ يحدث لنا، كما يحدث لنا أن نمشي، أو أن نصل إلى سن البلوغ، أو أن تنبت لنا أذرعة بدلا من أجنحة. وأما الاستعداد والمهارة والخبرة والبيئة، كل ذلك ليس سوى حافزا أو قادحا، لكي يعمل النظام اللغوي الفطري وفقا لما صمم له ، كما تنفذ الخلية برنامجها الوراثي لتوليد خلية جديدة »

وبناء على ما تقدم، يكون مفهوم التحويل هو نقل الفكرة من صورتها الذهنية الصورية المجردة الخفية، إلى مستوى السطح الذي يبدو في الشكل المحسوس المدرك في

---

(١) علي حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ٢٠٠١، ص. ص ١٠٨-١٠٩.

مدارج الكلام. وبتعبير آخر، تتمثل وظيفة التحويل، في تحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية ، وبالتالي تكون البنية السطحية هي المظهر الخارجي، أما البنية العميقة فهي ذهنية ذات وجود تقديري يقدرها اللغوي من خلال تصوره للنظام اللغوي، وهي لا تتحقق إلا من خلال إجراءات التحويل الذي ينصبّ عليها لإخراجها من الوجود بالفعل إلى الوجود بالقوة، أي أنّ أساس النشاط اللغوي هو هذا الفرق الموجود بين مستوى البنية العميقة والبنية السطحية، مما يجعل هذا النشاط عبارة عن نقل محتوى خفي عبر آليات وقواعد تحويلية تعمل بين الباطن والظاهر. وكأنّ التحويل يحتل موقفا في اللغة يقع على الحدود بينما هو عميق وبينما هو سطحي، حيث يمكن تمثيله بيانيا كما يلي:

وبخصوص البنية العميقة والبنية السطحية تقول خولة طالب الإبراهيمي: « فهذا الذي تدركه حواسنا من المدارج الكلامية هو في الحقيقة القشرة والسطح الأعلى ومالا يظهر في البنية العميقة يوجد في ذهن الإنسان ولا يحققها إلا بتحويلها إلى سلسلة كلامية إلى البنية العليا الظاهرة والسطحية التي كانت ولا تزال هي موضوع الدراسات اللغوية، ولما كانت هذه البنية خفية فلا نتعرف عليها إلا بتتبع عمليات التحويل التي يقوم بها المتكلم. فأراد تشومسكي أن يتبع هذه العمليات وقد تبين له بعد ذلك أنّ هذه البنية العميقة هي نتيجة لفعل القواعد التفريعية ، أما عمل القواعد التحويلية فيتمثل في تحويل هذه البنية العميقة إلى بنية سطحية مكونة من العناصر اللغوية تحدد هي الأخرى بفعل القواعد اللفظية »[1].

---

(١) خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٠، ص. ص ١٠٩ – ١١٠.

و بإيجاز فإنّ معنى الجملة يستخلص من بنيتها العميقة عن طريق التأويل الدلالي. أما التأويل الصوتي فيستخلص من بنيتها السطحية.

ولكن التساؤل يبقى مطروحا حول إمكانية مساهمة البنية السطحية في تحديد المعنى وكذلك الشروط الخارجية و المحيط و السياقات والمواقف المرتبطة بالخطاب.

وعليه نقول إنّ جمل اللغة غير محدودة، وتراكيبها تتوسع باستمرار، ولذلك فالدلالة ليست شيئا معطى بصورة قبلية وإنما يرتبط بالسياق الذي تظهر فيه حيث يتغير معناها بتغير هذا السياق. و بالإضافة إلى السياق نجد المقام، إذ المعنى المقصود من متوالية لغوية يتوقف أيضا على المعطيات الخارجية والحيثيات النفسية التي تلعب دورا كبيرا في عملية تأويل المعنى، وخاصة كما لاحظنا ذلك عندما يكون المرء أمام ظاهرة الاشتراك اللفظي أو الغموض الناجم عن الطابع المبهم للسان وقابليته لأن يؤول في معاني مختلفة . ثم أكثر ما تنضاف إلى الدلالة المركزية في الجملة قيّم عاطفية أو ثقافية خاصة بمجموعة بشرية، إذ الكلمات لا توحي بنفس المعاني لجميع الناس، كما لا يستعملونها بنفس المعنى، فهي تختلف باختلاف الثقافة التي تشربوها، ويبقى في الأخير للإنسان القدرة على التحكم في اللغة وتوظيفها بالشكل الذي يريده، وعملية التأويل هي فعل واعي وقصدي لاسيّما إذا كنا بصدد الخطابات الرمزية المكثفة.

الكفاءة والانجاز اللغوي Competence – performance

لقد رأينا سابقا أنّ وظيفة النماذج اللغوية تشكل القواعد البيولوجية الفطرية، لكي تصبح هذه القواعد البيولوجية قادرة على الإبداع والتوليد، ولذلك أطلق على نظرية تشومسكي اسم النظرية التوليدية . وبعد أن تتطور هذه القواعد في العقل البشري يصبح في إمكانها إبداع وتوليد تراكيب لغوية مجردة ومعقدة، وهو الأمر الذي يكشف عن نضج هذه القواعد واكتمالها حيث نلمس ذلك في تكوين الكفاءة اللغوية. وهذه القدرة اللغوية تبدأ في السنة الثانية من عمر الطفل، والتي يسميها تشومسكي أيضا

بالمعرفة الضمنية للمتكلمين وانطلاقا من هذه الكفاءة اللغوية يمكن للمتكلمين أن يبدعوا عددا غير محدود من الجمل المختلفة وهو ما يشكل الإنجاز اللغوي .

فماذا تعني الكفاءة اللغوية ؟. وماذا يعني الإنجاز اللغوي ؟ (١)

---

(1) La compétence d'un sujet parlant français –compétence qui doit être représenter dans la grammaire générative du français- c'est l'ensemble des possibilités qui lui sont données par le fait , et par le fait seulement , qu'il maîtrise le français : possibilité de construire et de reconnaître l'infinité des phrases grammaticalement correctes , d'interpréter celles d'entre elle (en nombre infini aussi) qui sont douées de sens , de déceler les phrases ambiguës , de sentir que certaines phrases , éventuellement très différentes par le son , on cependant une forte similitude grammaticale et que d'autre, proche phonétiquement sont grammaticalement très dissemblables , etc. .OSWALD .DUCROT/TZVETAN .TODOROV .

Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Éditions du seuil 1972, P 158.

- le terme technique de la compétence désigne la capacité qui a le locuteur – auditeur idéal d'associer sons et sens en accord strict avec les règles de sa langue. NOAM CHOMSKY. la nature formelle du langage. Édition du seuil 1969 P 126.
- Pour conclure, et pour tous dire sur la compétence et la performance, en peut dire que tout sujet adulte parlant une langue est , à tout moment , capable d'émettre spontanément ou de percevoir et de comprendre , un nombre indéfini de phrases que pour la plus part , il n'a jamais prononcées ni entendues auparavant .

La compétence est la connaissance que le locuteur auditeur idéal à de sa langue. La performance, elle concerne l'emploi effectif de la langue, les énoncées du vraie locuteur -

إنّ الكفاءة اللغوية تشمل الوسائل والأدوات التي تتوفر لدى المتكلم للتعبير عن نفسه، وذلك بافتراض وجود قوى فطرية عند الإنسان عامة و مشتركة، وهي التي تشكل البنية العميقة التي تتحكم في جميع التحولات التي نقوم بها في لغتنا. وهنا بالذات يختلف تشومسكي مع وجهة نظر بلومفيلد القائلة برد المنطق إلى اللغة، وقال بالعكس، أي إرجاع اللغة إلى المنطق.

أمّا الإنجاز اللغوي فيمثل التحقق المنطوق للكفاءة أو القدرة اللغوية الماثل في سلوك المتكلمين، القابل للملاحظة الخارجية و الدراسة الموضوعية، ويمكن القول أنّ هذا الجانب هو اللغة الخاصة بهذا المتكلم أو ذاك.

إنّ الإنجاز اللغوي يرتبط بعدة عوامل، كالمعطيات الفيزيولوجية والنفسية، مثل الذاكرة والانتباه والاهتمام وهي الجوانب الذاتية التي تخص الفرد، وهناك عوامل موضوعية لا يجوز إغفالها تؤثر بدورها في عملية الإنجاز اللغوي كسياق المواقف والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد، والذي يكيف لغة المتكلم بشكل ملحوظ، ويطبعها بطابع خاص، ونحن ندرك ذلك من خلال المقارنة البسيطة بين الأفراد الذين يستعملون نفس اللغة، إلاّ أنّ إنجازهم اللغوي مختلف، وهو ما يؤكد بما فيه الكفاية اختلاف الإنجاز اللغوي من فرد لأخر حسب وسطه الاجتماعي، ووعيه، ودوره، ووظيفته الاجتماعية.

وزيادة على ذلك فقد لاحظ كلود ليفي شتراوس أنّ عمليات التواصل هي عمليات متكاملة بين الفردي و الاجتماعي. وبالتالي تتأثر اللغة بالمتكلم، وبالجو الثقافي الذي يلوّن هذه اللغة بلون خاص ومتميز. بمعنى إذا كان سياق الكلام يلعب دورا أساسيا في تحديد دلالة الكلمات في التواصل، فإنّ موقف المتكلم الذي ينتسب إلى قيّم ثقافية معينة يحدد ويغير دلالة الكلمات التي تستعمل للتواصل ضمن مجموعة

Auditeur avec ses faiblesses et ses limites dans les situations concrètes.

بشرية معينة. وفي هذا الصدد يقول كلود ليفي شتراوس: « كما أنّ مقتضيات الاتصال... تغذي ضربا من النقد قد يكون بمعنى من المعاني، نقدا تكوينيا، لأنّ كل ما يصدر عن المتكلم من ألفاظ إنّما يوجد لكي يكون مفهوما من قبل الآخرين. فدلالته إذن لا تقتصر على كونها من باب القصد والنية وحسب: إذ إنّها لا تتخذ شكلها الفعلي والنهائي إلاّ بعد أن تتقولب في القالب الذي لا بد أن يكون نصفه الآخر في حوزة المخاطب، أو على الأصح في حوزة المجموعة المجتمعية »(١).

إذن لقد اهتم تشومسكي بالقواعد التي تسمح بإنتاج وفهم اللغة. وهذا في إطار البحث عن نظام قادر على فهم اللغة الإنسانية. ولقد كانت ملاحظة الأساسية منصبة على الكفاءة والإنجاز اللغوي، وبالفعل فان تشومسكي قلب ثنائية دوسوسير حول اللغة والكلام بطريقة علمية وبحث بشكل جدي عن عملية أو كيفية الانتقال من الكفاءة إلى الإنجاز اللغوي. و توصل إلى أنّ تلك العملية تتم بتطبيق القواعد التي تسمح لنا انطلاقا من مجموعة من الجمل المحدودة أن ننتج مجموعة من الجمل المختلفة والمعقدة، وهذه الفكرة هي التي تمثل جانب الجدة و الأصالة في القواعد التوليدية.

إنّ هذه الفكرة هي التي تتجاوز ذلك التقابل السوسوري الذي أبعد من خلاله دوسوسير الكلام من الدرس اللساني. وكان ذلك بطبيعة الحال لأسباب موضوعية تتعلق بموضوع اللسانيات البنوية ومنهجها الذي يتعامل مع اللسان كنظام صوري لا يعرف إلا نظامه الخاص. ولذلك تقول خولة طالب الإبراهيمي: « .يجب ألا ننسى أنّ اللسان أداة تبليغ، أداة يتحدث بها الإنسان ويتصل بها بالغير فاللغة استعمال يومي مستمر ومتواصل بل لا تتحقق إلا ضمن هذا الاستعمال في تفاعل مستمر بين المتكلمين. لذا ينبغي علينا أن نرجع إلى دراسة صور هذا الاستعمال أي أن نعيد للظواهر الكلامية اعتبارها في الدراسة »(٢).

---

(١) كلود ليفي شتراوس ، الإناسة البنيانية ، القسم الثاني ، ترجمة حسن قبيسي ، مركز الإنماء القومي ، لبنان ، ١٩٩٠ ص ٢٥٢.

(٢) خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ اللسانيات ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٧.

والجدير بالذكر أنّ الكفاءة اللغوية هي التي تسمح بتحقيق الشرطين الأساسيين في نظرية تشومسكي وهما : مفهوم السلامة النحوية ، أي سلامة الجملة وصحتها النحوية (Grammaticalité) وهذا المفهوم له علاقة بالبنية التركيبية، حيث يشترط في الجملة سلامتها النحوية، وما يجعلنا نتبين ذلك هو الحدس (Intuition) .أما الشرط الثاني فهو المقبولية (acceptabilité) بمعنى أن تكون الجملة مقبولة، أي أن تكون مناسبة لمدلولات اللغة المعنية. ولذلك فان صاحب اللغة يتمتع بقدرة لغوية كبيرة تسمح له بتمييز الجمل من حيث سلامتها أو استحالتها وتبين ما هو صحيح وما هو سقيم منها، وقد أورد تشومسكي أمثلة على ذلك كما يلي:

الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدة

بشدة تنام الخضراء التي لا لون لها الأفكار(١)

من خلال المثالين السابقين نلاحظ أنّ الجملة الأولى قواعدية، ولكنها عديمة المعنى، أي غير مقبولة في الكلام اليومي بين الناس لأنه من غير المعقول أن يكون للأفكار ألوانا خضراء أو غير خضراء. أما الجملة الثانية فإنّ تتالي الكلمات فيها يجعلها غير قواعدية وغير مقبولة في الوقت نفسه.

وبناء على ما سبق ذكره، فانه بفضل الكفاءة اللغوية يستطيع الناطق بلغته الأصلية أي اللغة الأم أن يعرف أنّ هذه الجملة (المدرسة لم أذهب جون) جملة خاطئة وأنّ الجملة الصحيحة هي (جون لم يذهب إلى المدرسة.) .

وهناك فرق بين الكفاءة والإنجاز اللغوي، حيث نجد هذا الأخير عرضة للأخطاء اللغوية، والتردد وزلات القلم واللسان. إلاّ أنّ ذلك لا يعني خللا أو مرضا في الكفاءة اللغوية، بل قد يكون ذلك ناتجا عن عوامل خارجية كحالات الهيجان أو حالات

---

(١) نعوم تشومسكي ، البنى النحوية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩.

المرض حيث يصعب على الإنسان التحكم في نفسه وضبط سلوكه كما هو الحال في حالة فاجعة.

وفي هذا الإطار يقول الأستاذ أحمد مؤمن في الإشارة إلى الفرق بين الكفاءة والإنجاز اللغوي: « يمكن لصورة الكفاءة والأداء أن توضح أكثر إذا علمنا أنّ المتعلمين - على العموم- يجيدون إجراء العملية الحسابية كالجمع والقسمة والضرب. ولكن إذا طلب منهم إجراء عملية ما فإنهم يحتاجون إلى وقت من الزمن ، ومع هذا فإنهم يخطئون أحيانا. وعلى نحو مماثل، فإنّ جل الناس -تقريبا- يمتلكون مقدرة لغوية تمكنهم من استعمال اللغة استعمالا جيدا. ولكنّهم عند تطبيق هذه المقدرة خلال الكلام أو التلقي - قد يحتاجون إلى وقت لتفكير. وعلى الرغم من هذا فقد يرتكبون بعض الأخطاء. فالناس أثناء عملية الكلام قد يترددون، ويتأتؤون، ويكررون أشياء، وتصدر عنهم بعض زلّات اللسان، أما أثناء التلقي، فقد لا يفهمون بعض الجمل والمفردات، وتغيب عنهم كثير من الأشياء. كل هذا دفع تشومسكي إلى التمييز بين الكفاءة والأداء (١) »

وفي رأي تشومسكي، وهذا على غرار دوسوسير الذي رأي أنّ اللغة يجب أن تدرس مستقلة عن الكلام، فإنّ تشومسكي رأى أنّ الكفاءة يجب أن تدرس قبل الأداء وتشكل قاعدة لدراسة الإنجاز اللغوي. ولكن من غير الممكن دراسة الكفاءة اللغوية إلاّ من خلال ما يقوله الفرد فعلا. غير أن ذلك لا يشكّل إلاّ جزءا يسيرا من كفاءته، أما الحدس المتمثل في الأحكام التي يصدرها المتكلم حول تشخيص الجمل فيشكل الجزء الثاني من الكفاءة اللغوية.

ومن الملاحظات العامة كذلك أنّ الإنسان لا يلتزم دائما أثناء استعمال اللغة بالقواعد بل كثيرا ما يتمرد عليها وفي هذا الإطار يقول الأستاذ أحمد حساني : « بيد أننا وجدنا الإستعمال الفعلي للغة في الخطابات غير العادية لا يلتزم أحيانا بالعلائق الإنتقائية لفئات الكلم . بل قد يتحرر من قيودها ، ويمرق من سلطانها ليبدع نمطا

---

(١) أحمد مؤمن ، اللسانيات النشأة والتطور، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١١.

لسانيا خارجا عن النمط المعياري الذي يؤصله المخزون القواعدي في ذاكرة المجتمع اللغوي »[1].

وخلاصة وجهة نظر تشومسكي هي أنّ القدرة اللغوية فطرية وعامة وثابتة. أما الإنجاز اللغوي، فهو خاص ويختلف من فرد إلى أخر، مما يوحي بأنّ للأفراد قدرة عجيبة على إبداع اللغة، وابتكارها في كل لحظة. و الهدف العملي لهذه النظرية التوليدية، هو أنّه لمعرفة لغة ما، لسنا في حاجة لتجميع عدد كبير من النصوص للمجموعة البشرية التي نحن بصدد دراسة لغتها، وإنما الأمر يقتضي فقط معرفة الكفاءة و القواعد التحويلية.

ويقول الأستاذ ميشال زكريا معلقا على مفهومي الكفاءة والإنجاز اللغوي عند تشو مسكي ما يلي: « نلاحظ أنّ كل إنسان، يتكلم لغة معيّنة قادر ، في كل آن وبصورة عفوية ، على صياغة وتفهم وإدراك عدد لا متناه من جمل لغته لم يسبق له ، في الظاهر، لفظ أكثرها أو سماعها من قبل. وهذا الإنسان يتبع، في الواقع، قواعد معينة يعود إليها بصورة طبيعية عندما يتكلم لغته. وهذه القواعد بالذات يملكها الإنسان في ذاته، وتتيح له أن يربط المعاني القائمة في ذهنه، بمجموعة الإشارات الصوتية التي ينطق بها للتعبير عن هذه المعاني. نسمي هذه الملكة اللغوية بالكفاية اللغوية. ونميز بينها وبين ما نسميه بالأداء الكلامي، أي الاستعمال الآلي للغة ضمن سياق معين. وهذا التمييز مرده إلى أنّ الأداء الكلامي لا يَخل من بعض الانحرافات عن قواعد اللغة. كما أنه يحتوي أيضا، في ما يحتوي عليه، عدد من المظاهر نعتبرها طفيلية بالنسبة إلى تنظيم القواعد الضمن الخاص باللغة. يهمنا من هذا التمييز أنّ الأداء الكلامي هو بمثابة الانعكاس المباشر للكفاية اللغوية، وأنّ كل أداء كلامي يخفي وراءه معرفة ضمنية عائدة إلى حقيقة عقلية هي الكفاية اللغوية بالذات »[2]

---

(١) أحمد حساني ، المكون الدلالي للفعل في اللسان العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، سنة ١٩٩٣و ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) ميشال زكريا ، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، ط ٢ سنة ١٩٨٥ ، ص ٣٠.

ملاحظات نقدية:

نود أن نسجل بعض الملاحظات على النظرية اللغوية عند تشومسكي. فبالرغم من أنّ نظرية تشومسكي قد بلغت درجة لم تبلغها الدراسات اللّسانية السابقة عليها، لما قدّمته من خدمات ومساهمات في حقل الدراسات اللّسانية، وذلك بإحيائها شبكة من التساؤلات حول اللّغة وأصلها وعلاقتها بالفكر ودراسته المعنى وغير ذلك. حيث كانت هذه الجوانب قد أقصيت من الدرس اللّساني لدى مدارس لسانية كثيرة. وكذلك انفتاح دراسات تشومسكي على مجالات وحقول معرفية جديدة، مثل علاقة اللّغة بالرياضيات والدلالة والبيولوجيا وعلم النفس، لدرجة أنه أعتبر اللّسانيات فرع من فروع علم النفس المعرفي.

وبالرغم كذلك من التعديلات والتطورات التي أدخلها تشومسكي على نظريته، إلاّ أنّ ذلك لم يجعلها بمنأى عن النقد، والملاحظات والتعقيبات بل لقد انبثقت من أحشائها مدارس جديدة على يد بعض تلامذته مثل لاكوف الذي قاد مدرسة علم الدلالة التوليدي.

و من الملاحظات التي يمكن أن نسجلها هي أنّ تشومسكي ينتمي إلى تيار المذهب العقلاني، حيث يعد كلّ من أفلاطون وديكارت وهميوليت من المحطّات الرئيسية في فكره، فقد أخذ عن أفلاطون فكرة الملكات الفطرية، وأخذ عن ديكارت مفهوم الحدس ، كما استلهم مفهوم الإجراء التوليدي عن همبوليت ، وعمقه وأثراه حتى أضحى يمثل شبكة من المبادىء و التصورات. وبهذا يكون تشومسكي ضمن المذهب العقلاني، ولا شك أنّ هذا الموقف يتناقض مع أفكار المدرسة السلوكية التي كانت تعيش أوج ازدهارها في الولايات المتحدة الأمريكية في مجال دراسة اللّغة .

وإذا كان تاريخ الفلسفة برمته يتأرجح بين التيار المثالي و التيار المادي، أو بين التيار العقلاني والتيار التجريبي، فإنّ كلّ تناول لغوي للّغة هو بشكل من الأشكال نشاط فلسفي متأصل، فالسؤال اللغوي كان و سيبقى بمثابة نشاط تنظيري و تأملي

و من ثم فلسفي لا يمكن اختزاله مهما بلغت درجة العلمية و مهما اختلفت المناهج وتعددت التصريحات التى تصاحب كل الخصوصيات النرجسية الجديدة التى هي ترجمة معبرة بالنسبة لكل الاختصاصات المتعارضة (١).

ومن الطبيعي أن يحتدّم الصراع وتشتدّ المواجهة بين النظريات داخل الحقل الذي تنتمي إليه لتفرز في النهاية أفكارا ونتائج متعارضة ومختلفة. ولذلك تعرض المذهب العقلاني للنقد على اعتبار أنّ اللّغة ليست ملكة فطرية توجد في التركيب العضوي للدماغ، لأنّ الإنسان يتعلّم الكثير من الأمور من خلال مواقفه العديدة في الحياة، عن طريق التجربة والخبرة والاكتساب. يقول الأستاذ على الحرب:« من هنا فإنّ النظرية التوليدية بوصفها تعالج اللّغة من خلال مقولة النحو الكلّي ذي الأساس الفطري، تنفتح على ضربين من القراءة: الأولى تفسر اللّغة من خلال مقولة الطبيعة والدّماغ أو الضرورة والآلة، أو الذاكرة والوراثة. أمّا الثانية فإنّها تفسر الواقائع اللّغوية من خلال مقولات العقل والثقافة أو الحرّية والإبداع أو التوليد والتحويل... هذا مع أنّ تشومسكي يقرأ نظريته بحسب القراءة الأولى. إذا جاز القول بأنّه قارئ لنظريته على ما يؤكد مرارا وتكرارا »(٢).

وكما سبق وأن ذكرت فإنّ نظرية تشومسكي حاولت أن تقدم تفسيرا لفهم الوقائع اللّغوية من خلال الانفتاح على العوامل النفسية والعقلية التي استبعدتها الدّراسات اللّغوية السابقة. ولذلك فإنّ إشكالية تشومسكي كانت ترمي إلى تجاوز المرحلة الوصفية إلى التفسير ووضع النظرية. إلاّ أنّ تشومسكي بدأ بالبحث عن المبادئ لتفسير الوقائع وليس العكس. أي الانطلاق من الوقائع للوصول إلى المبادئ كما تفعل العلوم الاستقرائية والتجريبية.

---

(١) الحسين الزاوي ، المسألة اللغوية والتعبير الفلسفي المعاصر ، دار الغرب،ط١، الجزائر، ص٢١.

(٢) علي حرب ، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي . مصدر سبق ذكره . ص ١٠١.

حيث يقول تشومسكي:« إنّ النظرية اللّسانية تعني في المقام الأول بمتكلم مستمع مثالي في مجتمع لغوي متجانس تماما. حيث يعرف ذلك الشخص لغة ذلك المجتمع معرفة جيّدة، ويكون غير مصاب بهذه الحالات النحوية غير الملائمة مثل قصور الذاكرة ، والاضطراب العقلي، عدم الانتباه والاهتمام والأخطاء اللّغوية المميزة وذلك عند تطبيق معرفته اللّغوية في كلّ أداء فعلي »(١).

وحول هذا التحديد الذي يقدّمه تشومسكي لموضوع النظرية اللّسانية يردّ عليه الأستاذ علي حرب بقوله:« هذه مفارقة أخرى من مفارقات تشومسكي. فهو فيما يقدم نفسه دوما كرجل علم يهتمّ بتحليل الوقائع وفهمها، يعتبر أنّ موضوع نظريته اللّغوية ينبغي أن يكون متكلما نموذجيا مستبعدا بذلك الخاص والغريب والشّاذ، أي كلّ ما لا تستطيع النظرية تفسيره. وهذا شأن النماذج المثالية والنظريات الشمولية: إنّها تنبني وتصدّق بالتستر على عوراتها ونقائصها »(٢).

وعلى الرغم من أنّ هدف النظرية اللّغوية عند تشومسكي هو البحث عن المبادئ والعمليات التي بها تبنى الجمل في أيّ لغة كانت حيث يقول:« يتناول النحو المبادئ والعمليات التي بها تبنى الجمل في اللّغات المختلفة. وتهدف الدراسة النحوية للغة ما إلى بناء نظام للقواعد يمكن اعتباره وسيلة من وسائل إنتاج جمل اللّغة التي قيد التحليل. وبشكل أعم فعلى اللّغويين أن يهتموا بمسألة تحديد الصفات الأساسية التي تستند إليها أنظمة القواعد الناجحة . وينبغي أن تكون النتيجة النهائية لمثل هذه البحوث إنشاء نظرية للبنية اللّغوية تظهر فيها الوسائل الوصفية التي تستخدمها أنظمة معينة للقواعد، وتدرس بأسلوب التجريد دون الإشارة إلى أية لغة معينة »(٣).

لكن جيفري سامبسون في كتابه المدارس اللّغوية يعيبّ على تشومسكي قائلا: « إن

---

(١) أحمد مؤمن ، اللسانيات النشأة والتطور، مصدر سبق ذكره ، ٢١٠.

(٢) علي حرب ، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٩.

(٣) نعوم تشومسكي ، البنى النحوية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣.

المدرسة ا لتشومسكية اتجهت للتركيز على اللغة الإنجليزية و اللغات الأوروبية القريبة منها أو التي لها علاقة بها على سبيل اختصار الوقت، بخلاف ما بذله الوصفيون من جهد على اللغات الأجنبية، مرة أخرى فإنه من الواضح أن هذه السياسة سوف تقلص فرص النجاح لتطوير نظرية للتعميمات اللغوية، حتى لو كان الاستبطان الشخصي مقبولا كأساس لتحليل أية لغة خاصة »(١).

ولما كان تشومسكي مهتما بطبيعة اللّغة عند الإنسان، كان من اللائق به أن يميل إلى دراسة اللهجات واللّغات البدائية لكونها تمثل مرحلة طفولة اللّغة، عوضا أن يتوجه إلى دراسة اللّغة كما هي في شكلها النهائي والمكتمل نسبيا.

لقد أشار بعض النقاد إلى أنّ تشومسكي وقع في مغالطات عديدة ولذلك واجه اعتراضات شديدة من قبل المدارس التجريبية الرافضة لفكرة المقولة الفطرية للّغة، ولفكرة الحدس، والمنهج العقلي وغير ذلك. فقد رأى جيفري سامسون:

« إن خطأ تشومسكي بالنسبة للمنهج هو في الواقع الدقيق مشابه لمغالطة المدرسة السلوكية ..... لقد تعلل السلوكيون السيئون بأنه ممنوع بالنسبة للعالم أن يستخدم الاستبطان دليلا، لهذا فإنه لم يكن هناك شيء ليستبطن.

يعتقد تشومسكي إننا نملك أفكارا معقدة، لها حياتها الخاصة يقربنا الاستبطان منها،

ويشيرالى أن الاستبطان مقبول كدليل في التنظر العلمي. كل من هذه المناقشات أسوأ من بعضها البعض.

إن الاعتراض على استخدام الدليل الإستبطاني في العلم لا يعني أنها لا توجد أشياء مثل الإستبطانات ،بينما الاستبطان عرضة للخطأ مثله مثل الملاحظة، ولما كان الاستبطان لا يمكن نقده بنائيا، مثل ما نستطيع نقد تقارير الملاحظات. »(٢).

---

(١) جيفري سامسون ، المدارس اللغوية ، ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، ط١ سنة ١٩٩٣ ، ص١٥٧ . ١٥٦.

(٢) جيفري سامسون ، المدارس اللسانية ، مصدر سبق ذكره ، ص١٥٩.

ويضيف الأستاذ علي حرب بأنّ تشومسكي: « لا يزال يستبد به هاجس الدفاع عن النظرية التوليدية من خلال مقولة الكليّات النحوية الفطرية. الأمر الذي جعله يشتغل كحارس لنظريته، همه الأساس صونها من المستجدّات والمتغيرات »(١).

والواقع أنّ هذه الانتقادات تجد مبرراتها وشرعيتها، فقد حدث تحولات كبيرة في السنوات الأخيرة في حقل الدراسات اللّسانية انتقلت بها من مستوى الجملة إلى مستوى النص أو مستوى الخطاب.

وهذه التحولات قد حققت دفعا قويا للدراسات اللّسانية حيث بدأت تنظر إلى الظاهرة اللّغوية في أبعادها المختلفة، حيث تخلصت هذه الأخيرة من عوائق ورواسب الدراسات البنيوية التي فشلت في التقدم باللّغة إلى مستوى اللّسانيات النصية ولسانيات الخطاب كما هو الحال مع فوكو، ودريدا .

يقول اللّغوي الألماني "روك" في هذا الصدد ما يلي: « أخذت اللّسانيات النصية بصفتها العلم الذي يهتم ببنية النصوص اللّغوية وكيفية جريانها في الاستعمال، شيئا فشيئا مكانة هامة في النقاش العلمي للسنوات الأخيرة. لا يمكن اليوم أن نعدّها مكملا ضروريا للأوصاف اللّغوية التي اعتادت أن تقف عند الجملة المعتبرة إياها أكبر حدّ للتحليل بل تحاول اللّسانيات النصية أن تعيد تأسيس الدراسة اللّسانية على قاعدة أخرى هي النص ليس غير. لكن هذا لا يعني أننا نعتمد المعنى المتداول بين الناس للنص (نص مكتوب عادة ما يأخذ شكل منتوج مطبوع) بل ينبغي أن ندرج في مفهومنا للنص كل أنواع الأفعال التبليغية التي تتخذ اللّغة وسيلة لها »(٢).

و مهما كان الأمر فإنّ تشومسكي قد لفت انتباهنا إلى ضرورة الاهتمام بالعلوم الأخرى والاستعانة بها لدراسة اللّغة. ولا شكّ أنّ هذه العلوم قد حققت تطورا كبيرا

---

(١) علي حرب ، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ، مصدر سبق ذكره ، ص١١١.

(٢) خولة طالب إبراهيمي ، مبادئ اللسانيات ، مصدر سبق ذكره ، ص١٦٧-١٦٨.

على الساحة المعرفية، إلاّ أنّ تشومسكي ظلّ متمسكا بأطروحته المبنية على تصور فطري للغة، والمحددة بشكل سابق على كلّ تجربة. وباعتبار اللغة كذلك فإنها في نظر تشومسكي مسؤولة لتوضيح الطبيعة الإنسانية. فمعرفة اللّغة تعني معرفة قدرات العقل الإنساني.

و في هذا المجال يقول الأستاذ علي حرب :« الملاحظ أن التغيرات لم تغير شيئا في موقف تشومسكي من نظريته، أي لم يكن لها مفاعيلها المفهومية على النحو التوليدي . من هنا لم ينجح تشو مسكي في تطوير نظريته التوليدية، سواء بتوسيع مجال البحث أو بإغناء المفاهيم.و هذا شأن التفكير عندما يتحول إلى جدل يرمي إلى تثبيت أطروحة أو نقض أطروحة مضادة لها: إنه يتم على حساب المفهوم، بقدر ما يقوم على نفي الحدث اللّغوي وما يتولد عنه من حقائق »(١).

و بناء على ما سبق يجب على الفيلسوف أن يبدل لغته حتى يستوعب مرونة الفكر وحركته التي لا تتوقف. وبالرغم كذلك من أنّ تشو مسكي أحدث انقلابا ثوريا في مجال اللّسانيات مما جعل اللّسانيون يكنون له الاحترام الكبير، وخاصة عندما أعاد إلى مجال البحث الكثير من القضايا التي كانت مقصية ومستبعدة من الدرس اللّساني. كالمظهر الإبداعي للّغة، لكن ألا يتعارض هذا المظهر الإبداعي مع مقولة الطبيعة الفطرية للّغة؟ .

يرى الأستاذ علي حرب :« إنّ مفاهيم الإبداع والتحويل والإنتاج، التي هي ميزة النحو التوليدي، تتعارض مع مقولة الطبيعة الثابتة وهذه مفارقة من مفارقات تشو مسكي .ذلك أنّ المظهر الخلاّق للغة يتجلّى في القدرة على التخلق والتشكل أو في إمكان التوليد والتحويل، عبر أداءات الناطقين وما تأتي به من الابتكارات التركيبية والدلالية والأسلوبية...بهذا المعنى لا يمكن الحديث عن خلق محكوم بالقواعد العامة...فالقدرة

---

(١) علي حرب ، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ، مصدر سبق ذكره ، ص١١٢.

الخلاقة هي القدرة على التحويل بالخروج على الطبيعة وزحزحة الثوابت ...غير أنّ تشومسكي يصر على التمسك بموقفه الماورائي متكئا على المقولة الهرمة للطبيعة البشرية. معتبرا أننا لا نتعلّم من اللّغة في نهاية التحليل، سوى الألفاظ التي تتوافق مع المفاهيم الموجودة لدينا مسبقا، أي التي يمليها النموذج الجاهز الذي تزودنا به طبيعتنا »(١).

ولعل التناقض هنا يبدو واضحا في نظرية تشو مسكي، ولا سيما في قوله بالفطرة من جهة وبالإبداع والتحويل من جهة ثانية، إذ كيف يتجاهل تشو مسكي هذه الحقيقة التي أعترف بوجودها وهي القدرة الإبداعية للّغة غير المحدودة والتي لا يمكن أن يحيط بها أحد، إذ من المستحيل القبض على حقيقة اللّغة وامتلاك معرفة نهائية بها مادامت متجددة وهنا يقول علي حرب:« إنّما تفعله محاولات التأسيس والتأصيل ليس سوى الحجب والتمويه، بخلع الطابع الماورائي والمتعالي على ما هو تاريخي ومحايث ومتحول(٢).

ويرى بعض اللّسانيين، أمثال جيفري سامسون أنه بالرغم من التأثير الكاسح للنظرية التوليدية بما فتحته من تساؤلات وإمكانيات من خلال الاشتغال عليها، أو الانشغال بها، لم تكن لها نتائج ايجابية فقط بل كانت لها نتائج عكسية على مستوى البحث الألسني.وهذه الوضعية تشبه إلى حد كبير حالة المنطق الأرسطي الذي هيمن على الفكر لمدة تتجاوز الألفي سنة، غير أنّ التحولات الكبرى التي حدثت في أوربا لم تتم إلاّ يوم بدأ الفلاسفة في التساؤل عن طبيعة هذا المنطق ، وبدأ التفكير بالفعل في البحث عن مناهج جديدة لتعويضه. وفي هذا الإطار يقول جيفري سامسون :« إن هيمنة المدرسة التشومسكية أحدثت تطورا في غير صالح البحث اللغوي ، لقد جذبت انتباه رجال كثيرين و انتخبت مجموعة كبيرة من الأبحاث ، و شعر الناس – بشكل

---

(١) علي حرب ، المصدر نفسه ، ص١١٤.

(٢) علي حرب ، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ، مصدر سبق ذكره ، ص١٢٣.

طبيعي – أن هذا العمل لا يمكن أن يكون تافها ، ولكن الناس – بدون شك – شعروا بالمثل بالنسبة لعلم التنجيم و علم الكيمياء ، عندما كانت هذه العلوم مزدهرة في نشاطها ، و قد عرفنا الآن أنهم مخطئون ، هل يوجد شيء محمي من الدمار أو الخطأ؟. (١) »

وبناء على هذه النظري المعرفية والإبستيمولوجية لا يسعنا إلا أن نقول مع غاستون باشلار أنّ « كل طريقة بحث لا بدّ وأن تنتهي بفقدان خصبها الأول حتى تأتي دائما ساعة لا يجد المرء فيها فائدة للبحث عن الجديد في أطلال القديم ويعجز الفكر العلمي عن التقدم إلاّ بخلق طرائق جديدة وقد تفقد المفاهيم العلمية ذاتها شمولها الكلي وكل مقالة في الطريقة العلمية ستكون دائما مقالة ظرف ولن تصف بنية نهائية للفكر العلمي و ينبغي أن يظل التفكير في الطريقة نشطا حتى على صعيد الفكر المحض (٢) »

وأخيرا وليس آخرا وانطلاقا من كل هذا وذاك يمكن أن نخلص إلى نتيجة منطقية وإبستيمولوجية في جوهرها وهي أنّ النقد عملية أساسية وأولية في مواكبة

---

(١) جيفري سامسون ، المدارس اللغوية ، التطور والصراع ، مصدر سبق ذكره ، ص١٦٩.

(٢) غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، ترجمة : عادل العوا ، موفم للنشر ، الجزائر ، (ب.ط) ، ١٩٩٠ ، ص ١٥١-١٥٢.

Il n'aya pas de méthode de recherche qui ne finisse par perdre sa fécondité première. Il arrive. Toujours une heure ou' l'on n'a plus intérêt à chercher le nouveau sur les traces de l'ancien, ou l'esprit scientifique ne peut progresser qu'en créant des méthodes nouvelles. Les concepts scientifiques eux- Mêmes peuvent perdre leur universalité. Un discours sur la méthode scientifique sera toujours un discours de circonstance, il ne décrira pas une constitution définitive de l'esprit scientifique. Même sur le plan de la pensée pure, la réflexion sur la méthode doit rester active.

G-Bachelard,le nouvel esprit scientifique,enag , Alger, p171-172 .

حركية المعرفة وتطور المناهج والموضوعات والنماذج العلمية وانفتاح العقل على معقوليات جديدة واشتغاله على تخومه بتحوله من حدود الإطلاقية إلى دائرة النسبية والإمكان.